# المحاضرة الثامنة: ارتباط البلاغة بالسياق والنص الأدبي بمختلف تجلياته التداولية والاستعمالية.

عناصر السّياق التي يتعرّض لها البلاغيّون والنقّاد هي الغرض أوالهدف ، وطبيعة الموضوع ، والمخاطب؛ فطبيعة الرسالة اللغويّة تتغيّر بتغيّر هذه العناصر، بما فيها الرسالة الإبداعيّة. ويعبّر ابن قتيبة عن هذا بقوله : " فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما في نكاح ، أوحمالة ، أوتخصيص ، أوصلح ، أوما أشبه ذلك لم يأت به من واد واحد ، بل يفتنّ فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرّر تارة إرادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ، ويشير إلى الشيء ويكنّى عنه ، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وكثرة الحشد وجلالة المقام" . وممّا لفتني حقا أنّه أتبع هذه العبارة الجامعة قولة تضيء بعض ما نحن بصدده من تحليل سورة البقرة ، وهي أنّ" من فهم مذاهب العرب في ذلك ، وكثر نظره في افتنانها في الأساليب ، عرف فضل القرآن" . أي أنّ اتّساق الكلام مع غرضه ، ومع حال المتكلّم وحال السامع وعنايته بالأسلوب من أجل إيصال الرسالة اللّغويّة قول ينطبق على كلّ رسالة لغويّة ، ومن هذا الوجه يعرف فضل (القرآن الكريم) باعتباره يمثّل الذروة في الاتّساق والإبلاغ والبيان ، والمخاطب هومحورعملية الإبلاغ في هذه الرسالة الإلهيّة ولذلك فقد تو افر لهذا النّص القر آني كل عناصر الاتساق التي تؤدّي إلى تمام الإبلاغ.

وأمّا (السياق الحالي) فقد كان له حظّ و افر في دراسات البلاغيّين العرب القدامى ، فقد تنبّهوا إلى أثره في جعل الوحدات الكلاميّة أكثر غنى ، وثراء ووضوحا ، لدى السامع ، ولعلّ

الجاحظ أوّل من حاول تصنيف صور الدلالة فجعلها خمسا لا تزيد ولا تنقص ، وهي اللّفظ والإشارة ، والعقد (الحساب) والخطّ ، ثمّ الحال التي سمّاها نصبة ، والنصبة هي الحال الدالّة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصّر عن تلك الدلالات ، ويقصد الجاحظ بالإشارة عمل اليد والرأس ، والعين ، والحاجب ، والمنكب وغير ذلك ممّا يصحب الكلام من حركات ، ولولا هذه الإشارة في رأيه لما تفهّم النّاس معنى خاص الخاصّ .

وقد جمع الجاحظ في هذا عددا من القوى الكلاميّة وعدّها دلالات ناطقة ، فهي جزء لا يتجزّأ من الحدث الكلامي ، ودورها معروف في الإبانة عن دلالته وتقويته ، وأما النصبة وهي الحال الناطقة من غير لفظ ، والمشيرة بغير يد ، فالأشياء هنا تقوم مقام الكلمات في الإبانة عن ذواتها ، وهو تعبير دقيق لسياق الحال بكلّ تفاصيله و أثره في تدقيق الوصف للحدث الكلامي ، ولنا أن نتخيّل مثلا مسرحا لمعركة دامية بكلّ تفاصيلها ، إنّ آلاف المجلّدات لا يمكن أن تعدل بضعة مشاهد حيّة لهذا المسرح ، أو مكانا قد أتت عليه الزلازل ، أو حادث تصادم بين عدد كبير من الحافلات .. وغيرها. ويتنبّه الجاحظ إلى الأثر السلبي الذي يتركه انتزاع الكلم من سياقه ، وبخاصّة إذا كان الأمر في النوادر من كلام الأعراب ، " فأي تغيير يجريه الناقل في الإعراب أو في مخارج الألفاظ يفسدها ويبدّد ما كان فيها من المؤانسة والإمتاع" .

يقودنا هذا الطرح الوجيز إلى ولوج بعض المعالم التأصيلية للتداولية ، و قد اخترت تناول دراسة مميزة نشرت في مجلة المخبر بعددها السابع سنة 2011 م جاء فيها الأتي :

ولم تصبح التّداولية مجالا يعتدُّ به في الدّرس اللّساني إلاّ في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن طوّرها فلاسفة اللّغة المنتمين إلى جامعة أوكسفورد Oxford، جون أوستين J. Austine، وجون سيرل J. Searl، وبول غرايس Paul Grise، وهم من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية Langage Natiral. في مقابل مدرسة اللغة الشكلية ( الصورية) Formal Language وكانوا يهدفون إلى إيجاد طريقة لتوصيل معنى اللغة الإنسانية من خلال إبلاغ مرسل رسالة، إلى مستقبل يفسّرها، فكان عملهم من صميم البحث التداولي[22].

وكانت بداية تطور اللسانيات التداولية بنظرية أفعال الكلام التي ظهرت مع جون أوستين J. Austin، وتطوّرت على يد" جون سيرل"( J. Searle) وبعض فلاسفة اللغة من بعده، لتظهر بعدها جملة من المفاهيم والنّظريات التي تشكّل مجتمعة ما يعرف باللّسانيات التداولية،( أفعال الكلام، الاستلزام التّخاطبي، الإشاريّات،...).

والحقّ أنّ" جون أوستين" J. Austin حينما ألقى محاضرات ويليام جيمس عام 1955 لم يكن يهدف إلى وضع اختصاص جديد للّسانيات أو فرع جديد لها، وإنّما كان يرمي إلى وضع اختصاص فلسفي جديد هو( فلسفة اللغة)، بيد أن تلك المحاضرات صارت فيما بعد بوتقة للّسانيات التّداولية.

وانطلق أوستين من ملاحظة بسيطة مفادها أنّ كثيرا من الجمل التي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب« لا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره، فهي لا تقول شيئا عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، إنّما تغيّرها أو تسعى إلى تغييرها»[23]. فجملة من قبيل" آمرك بالصمت" لا تصف واقعا بل تسعى لتغيير حالة الضجيج إلى الصمت.

وبناء على هذه الملاحظات قسم" أوستين" Austine الجمل إلى: جمل وصفية يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وجمل إنشائية لا ينطبق عليها ذلك الحكم، وتقابل في الثقافة اللغوية العربية الجمل الخبرية والجمل الإنشائية، مثلما نجدها عند علماء النّحو والبلاغة، وكذا علماء التفسير وأصول الفقه في أبحاثهم.

وتتفرد الجمل الإنشائية بخصائص لا توجد في الجمل الوصفية، نحو كونها « تُسند إلى ضمير المتكلّم في زمن الحال، وتتضمّن فعلا من قبيل" أمر" و" وعد" و" أقسم" ويفيد معناه على وجه الدّقة إنجاز عمل، وتسمى هذه الأفعال أفعالا إنشائية»[24].

فالتداولية علم تواصلي جديد، يقوم على مجموعة من المفاهيم الإجرائية، يكاد يتّفق الباحثون على أنّ أهمها أربعة مفاهيم: أفعال الكلام Les Actes De Langages، ومتضمنات القول Les Implicites والاستلزام الحواري L'implication Conversationnelle، والاشاريات Deicies هذا بالإضافة لجوانب وآليات أخرى تعدّ من صميم البحث التداولي، مثل: نظريّة الملاءمة Théorie Pertinence، والقصديّة Intentionalistic[27] والسياق Contexte، والحجاج L'argumentation.

4- مهام التّداولية: تتلخص مهام التداولية في مجموعة عناصر تتمثل في:- دراسة اللّغة أثناء التّلفظ بها في السّياقات والمقامات المختلفة،« فالتّلفظ هو النّشاط الّرئيسي الذي يمنح استعمال اللّغة طابعها التّداولي»[28]، وذلك لكونه ينتقل باللغة من وجود بالقوّة في ذهن صاحبها إلى وجود بالفعل من خلال الممارسة الفعلية، وعلى أساس هذه المُمارسة يتحدّد القصد والغرض من الكلام، فالتّداولية، إذن، تدرس اللّغة بعدّها« كلاما محدّدا صادرا من متكلّم محدّد، وموجّها إلى مخاطب محدد، بلفظ محدد في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرضي تواصلي محدد»[29]، بمعنى أنّ الدّرس التّداولي يسعى لدراسة المنجز اللّغوي في إطار التّواصل وليس بمعزل عنه، ومعرفة مدى تأثير السّياقات الاجتماعية على نظام الخطاب، يقول" فان دايك"( Van Dik):« والفكرة الأساسية في التّداولية هي أننا عندما نكون في حالة التكلم في بعض السياقات فنحن نقوم أيضا بإنجاز بعض الأفعال المجتمعية، وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال».[30]

ويرى فان دايك( Van Dik): أنّ من مهام التّداولية كذلك، دراسة شروط نجاح العبارات، وصياغة شروط ملاءمة الفعل لإنجاز العبارة، ومدى ملاءمة كل ذلك لبنية الخطاب ونظامه، يقول:« إنّ أحد مهام التّداولية أن تتيح صياغة شروط إنجاح إنجاز العبارة، وبيان أي جهة يمكن بها أن يكون مثل هذا الإنجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل الإنجاز، الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر، وبهذا الاعتبار فإنّ المهمة الثانية، تقوم في صياغة مبادئ، تتضمن اتجاهات مجاري فعل الكلام

## بعض المراجع:


(3) ينظر: خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 63.

(4) فنجد نظرية أفعال الكلام انبثقت من تيار" الفلسفة التحليلية"، ونجد" نظرية المحادثة" نابعة من فلسفة" بول غرايس" PAUL GRICE، كما أنّ نظرية الملاءمة ولدت من رحم علم النفس المعرفي...،( ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ص 17).1-

(5) أساس البلاغة: تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص 303.

(6) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد11، ط3، 1994، ص 253-252.

(7) خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص 148.

(8) تجديد المنهج فى تقويم التراث، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ط2، ص -